سورة النمل

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩]

هناك أهمية كبيرة للكلمات وللأفعال وللأساليب التي يختارها القرآن لبيان قصده وهدفه. فقد يأتي بمعان يحتاج بيانها إلى صفحات كما هو وارد في هذه الآيات. فمثلا تم استعمال فعل "أنعمت" هنا، ويقصد منه "إلهي! لقد وهبت لي نعما عديدة، وطوقت عنقي بإحسانك".

أي: "إلهي!... لم أبق سجيناً، في سجن العدم بل خرجت إلى الوجود... وجدت... لبست قالب الوجود ولباسه، وأصبحت مرآة مجلوة لك.. من يشاهدني، ومن ينظر إليّ يدرك أنني إشارة إليك، وعلامة منك... لقد أنعمت علي إذ رفعتني لهذا المستوى. وعندما وهبت لي الحياة يسرت لي إمكانية أوسع للأفصاح عنك. أصبحت أحياناً ناياً يئن، وأحياناً وتراً صادحاً، أو عوداً يرسل نغماته للإشارة إليك. ثم جعلتني إنساناً... ولم تكتف بهذا بل رفعتني وجعلتني إنساناً مؤمناً. فيسرت لي مشاهدة الوجود ومعرفته من زاوية النظرة الإنسانية، كمن يشاهد معرضاً، أو يقرأ صفحات هذا المعرض كمن يقرأ كتاباً مفتوحاً... لقد كان هذا تشريفاً كبيراً لي. أجل!... إن النظر إلى الكون مثل هذه النظرة لا يمكن أن تتم إلا بالقابليات والاستعدادات الخاصة بالإنسان... ربِّ!.. إن هذه النظرة التي أنعمت بها

عليّ جعلتني لا أتقيد بمكان، بل بتحريك قابلية التفكير أستطيع التجول في ساحات الذات والصفات والأسماء الحسنى، وفي تجولي في هذه الدائرة الواسعة أقف مبهوراً أمامك ومذهولاً".

أجل!.. كان سليمان عليه السلام يقصد كل هذا، "بل أكثر بكثير من هذه المعاني باعتبار مقامه الرفيع والسامي" عندما استعمل كلمة "أنعمت".

والأمر الثاني في هذا الصدد هو استعطاف النبي سليمان عليه السلام بفعل "أنعمت فكأنه يقول: "يا رب! إن ما سأطلبه بعد قليل ليس مغايراً لعادتك السبحانية، فكم من لطف تلطفت به علي دون أن أسألك إياه، لذا أعتقد بأنك ستعطيني ما أطلبه منك الآن لأنك قادر على العطاء وعلى الإجابة". وهو يحاول استدرار رحمته وشفقته. ولو قمنا بالتعبير عن هذا بأسلوب الإمام "آلوارلي أفه" لكان الطلب كما يأتي "ماذا يحدث يا رب لو استجبت؟... ماذا يحدث؟... لن ينقص منك شيء يا رب!". وبتعبير آخر: "لقد أعطيتني حتى الآن على الدوام... الهبة صفة من صفات مجدك. لذا لا أطلب منك شيئا خارج ما أعطيته ووهبته حتى الآن، بل أدعو فقط لإتمام نعمك".

في مثل هذا الدعاء كان نسيان أو إهمال الدعاء للوالدين جحوداً، وغفلة عن رؤية الأشياء التي أنعمها عليه بواسطتهما. أجل! كان النبي داود عليه السلام هو والد النبي سليمان عليه السلام، وكان نبيا وصل إلى الذروة ضمن خط النبي إبراهيم عليه السلام، ومظهرا للمدح الذي ذكره الله في القرآن حول بعض الأنبياء، وهو "إنه أواب". لقد وصل إلى هذا المقام الرفيع. أي كان من عباد الله الأجلاء المتوجهين بكل كيانهم نحو الله. ولو قيل له –من هذه الزاوية– إنه النبي "الأوّاه" لكان هذا في محله. لذا كان من غير المنتظر أبدا من النبي سليمان عليه السلام الذي جاء من صلب مثل هذا النبي ونشأ في حضنه أن ينسى أن لوالديه نصيبا في هذا المقام الذي وصل إليه. وإذا كان لنا أن نعبر بعبارة

أوضح لقلنا بأن سليمان عليه السلام كان يدرك أنه لو لم ينشأ في جو مثل هذه العائلة و لم ير تربية كتربية هذه العائلة لكان سليماناً اعتيادياً وفرداً كأفراد آخرين. لذا لم يهمل الدعاء لوالديه.

ويمكن الاقتراب من الموضوع هكذا أيضاً: إن الوالدين هما أقرب الناس إلى الإنسان، ولهما الأولوية في صلة الرحم. والقرآن الكريم يعلمنا هـذا الأدب بالأدعية التي يختارها ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١).

إذن تأتي نفس الإنسان أولا ثم الوالدان. وهذا في الحقيقة شرط من شروط الإنسانية وشرط من شروط التزين بالصفات الإنسانية. والإنسان الحقيقي هو من يتلذذ بتلذذ الآخرين -حسب درجة قربهم منه- ويتألم لألمهم. فهذا شرط من شروط كونه إنسانا. تأملوا مثلا حال النبي إبراهيم عليه السلام فهو -كما ورد في الأحاديث- متألم من حال والده في الدنيا وفي الآخرة.[1] لذا نجد النبي سليمان عليه السلام يتبع جده الأمجد في هذا الأمر ويشرك والديه في دعائه وكأنه يقول: "إن سعادتهم من سعادتي".

ونقطة أخرى، وهي كما أن استغفار الشخص لوالديه وارد -مثلما سجلنا في الدعاء أعلاه- كذلك يكون شكره للسعادة التي يصل إليها والداه وارداً. أي أن الإنسان إن لم يستطع إيفاء حق والديه في حياتهما، فهناك شيء أخير يستطيع القيام به وهو استعمال لسانه في الخير في حقهما مثل: "اللهم اجعل لوالدي نصيبا من التسبيحات والحمد والاستغفار الذي أقوم به". ونبي مثل سليمان عليه السلام الذي كان يعرف حتى لغة الطير "وعلمنا منطق الطير" كان يستطيع إيفاء هذا الأمر حَقّه على أحسن وجه.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾: يجب أن ننظر إلى هذه الآية من زاوية مدى ثقة الأنبياء العظام بمصيرهم وعاقبتهم. إنهم يخشون الله حق خشيته،

(١) البخاري، الأنبياء ٨.

ولكنهم مطمئنون من ناحية صيانتهم بالرحمة الإلهية. أو إنه قال هذا بإلهام من الله تعالى. والنبي سليمان عليه السلام يؤكد هنا بأن الوصول إلى رضا الله يكون بالعمل الصالح، لذا يدعو الله أن يوفقه للعمل الصالح. وهو يعلم بأن العمل الصالح سيولد عملا صالحا آخر في الغالب. ولكن هناك بعض الأعمال التي تبدو صالحة ولكنها لا توصل صاحبها على مقام الرضا الإلهي، ولا تستطيع ذلك أبدا.

والخلاصة أن سليمان عليه السلام عندما مر من وادي النملة وسمع كلام النملة وتبسم منه وشعر بسعة دائرة الإنعام الإلهي المهداة له قال ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فكان مثل النبي يوسف عليه السلام عندما اشتاق إلى لقاء الله وهو في ذروة المقامات المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة. وكذلك النبي سليمان عليه السلام الذي وصل إلى مقام النبوة وسخر له كل شيء من الإنسان إلى النمل... في هذه اللحظة توجه بكيانه كله إلى الله، ووسيلته في هذا التوجه هي الشكر الذي هو التعبير الجامع للعبودية، والعمل الصالح الذي يرضى عنه مولاه الحق ليدخله الله تعالى برحمته في عباده الصالحين. وقد عبر بهذا عن شوقه للقاء ربه.

إذا كان العمل الصالح هو العمل الذي أمر به الحق تعالى، وفي سبيله ومن أجله فقط، ولم يقصد منه سوى الدار الآخرة فهو العمل الذي طلبه يوسف عليه السلام وطلبه كذلك سليمان عليه السلام.

ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى عبادك المخلصين وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين وصلّ وسلم على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]

كلمة الضحك الواردة في الآية الكريمة لا تعني القهقهة بصوت عال، بل تفيد التبسم، أي ظهور خطوط تبسم على شفتيه لبرهة قصيرة من الوقت.

أولاً جرى حوار إعجازي بين النبي سليمان عليه السلام وبين النمل، وذلك بفضل ما وهبه الله تعالى من لطف ومرتبة عالية. لذا نراه يبتسم ابتسامة الشكر، للتعبير عن امتنانه لهذه النعمة. أي قام بالتحدث بنعم الله عليه.

ثانياً قامت النملة بواسطة بعض الإشارات والإشعارات للنبي سليمان عليه السلام ببيان فكرها حول تعيين الحدود النهائية للعدل وللتعامل بالحق فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

أي قالت هذه النملة لرفيقاتها: إن هؤلاء الناس قد يقومون بالإضرار بكم دون قصد أو تفكير منهم حسب الطبيعة المركبة فيهم. وتبسم سليمان عليه السلام بسبب هذا اللطف الإلهي الممنوح له، وفتح مثل هذا الباب أمامه. لأنه كان لطفاً خاصاً لنبوته. وكان هذا يقتضي منه شكراً حالاً وقولاً، وهذا ما قام به بتبسمه وبشكره.

ومثل هذا التبسم المعبر عن الرضا نجده في السيرة السنية لرسولنا ﷺ أيضاً. "عن أنس قال أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطبنا يوم جمعة إذ قام رجل فقال يا رسول الله هلك الكراع هلك الشاءُ فادع الله أن يسقينا، فمد ﷺ يديه ودعا. قال أنس وإن السماء لمثل الزجاجة فهاجت ريح ثم أنشأت سحابة ثم اجتمعت ثم أرسلت السماء عزاليها فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم يزل المطر إلى الجمعة

الأخرى فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله أن يحبسه فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال حوالينا ولا علينا فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل"[1] وفي رواية "رفع رسول الله ﷺ يديه بحذاء وجهه فقال: اللهم اسقنا"[2] أي تبسم رسول الله ﷺ كعنوان شكر لله تعالى وكتصديق لرسالته وكونه نبيا مستجاب الدعوة.[3]

وقد عبر عن كلتا الابتسامتين بـــ"الضحك". لم تكن هذه قهقهة من النبي سليمان عليه السلام، بل ابتسامة خفيفة بدت فوق شفتيه، ويجوز أن أحدا ممن كان حواليه لم ينتبه إليها.

ويمكن النظر إلى آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨) من زاوية أخرى وهي أن النملة تسجل وتقول بأن شخصاً في مستوى النبي سليمان عليه السلام ليس مكلفاً بإقامة العدل بين الناس فقط، بل عليه أن يعدل حتى مع النمل. وبينما تبين النملة صعوبة تحقيق الإنسان للعدل التام فيما بينهم تحذر طائفتها فتقول بأن وجودهم على طريق الجنود شيء محفوف بالمخاطر وبالتهلكة. بينما كان الهدهد الطائر فوق الرؤوس يخبر النبي سليمان عليه السلام عن ملكة سبأ وعن قومها وعبادتهم للشمس. ويبدي عجبه ودهشته من قيامهم بهذه العبادة قائلاً ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النمل: ٢٥){س}، يتعجب من عبادتهم للشمس التي ليست سوى مخلوق من مخلوقات الله تعالى.

والشيء الذي يجلب النظر أن كلا من النملة والملكة بلقيس التي جاء الهدهد بخبرها... كلا منهما أنثى. والأنوثة رمز للخصب. وبجانب كون

---

(١) البخاري، المناقب ٢٢.

(٢) البخاري، الجمعة ٣٣.

(٣)البخاري، الاستسقاء ١٤؛ أبو داود، الاستسقاء ٢.

النملة إشارة إلى ملكة سبأ، فإن كثرة زوجات النبي سليمان عليه السلام واستهدافه كثرة الأبناء من أجل الجهاد وإعلاء كلمة الله أمر جدير بالوقوف عنده.

وأحسب هنا وجود إشارة إلى أن الإنسان الكامل يهتم بعالم الحيوان أيضاً. وقد يكون هذا مهما من زاوية أخرى. فلو كنا على صلة بعالم الحيوان وقدرنا إدراك بعض الحقائق المتعلقة بهذا العالم، لكان هناك الكثير من الحقائق التي كانت المخلوقات توصلها إلينا بلغتها الخاصة بها. وأنا أعتقد أن تسمية بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات "مثل: النمل، النحل" إشارة إلى أهمية وجود العلاقة بين عالم الإنسان وعالم الحيوان. فلا بد أن لأحياء كالنمل والنحل -التي تعيش في نظام جمهوري- بعض الحقائق التي تستطيع إلهامها لنا. غير أن هذه العلاقة الدقيقة لا يمكن تحقيقها وشرحها إلا من قبل شُعُورٍ مُدْرِكٍ لإنسانٍ مؤمنٍ.

لقد بين الله تعالى في القرآن إمكانية تخاطب الإنسان مع حيوان تخاطباً مباشراً وتفاهمه معه بمعجزة نبوية. وأن لغة التخاطب هذه لغة فصيحة وبليغة وإنْ لم يتم استعمال الكلمات فيها، وأنها كافية لتكون وسيلة حوار مفتوح بينهما.

وقد يكون أحد أسباب تبسم النبي سليمان عليه السلام هو أن هذا التسخير بـ"القوة" قابل للانقلاب إلى تسخير بـ"الفعل"، وأنه سيتحقق عندما يأتي أوانه المناسب. الله أعلم بحقيقة الحال والصواب، وإليه المرجع والمآب...

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

[النمل: ٤١]

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: "سنرى هل ستهتدي الملكة إلى الإيمان أم تبقى ضالة وبعيدة عن الهداية". وأنا أرى أن هذا غير منسجم مع سياق الآية. وتفسير الآية كما أرى هو: غيروا معالم عرشها لنرى هل ستعرف أنه عرشها أم لا".

ولكن كلمة "الهداية" هنا لا تعني مجرد معرفة بسيطة بأن المعروض أمامها هو عرشها. فالسياق لا يلائم هذا. فهل هذا العرش -الذي تعرض للتبديل- هو عرشها، أم عرش جديد؟... كان من الممكن أن يقوم النبي سليمان عليه السلام بقياس فطنتها بهذا الامتحان. ولكن الظاهر أن المسألة لم تكن محصورة في هذا فقط. تأملوا امرأة وثنية أو عابدة للشمس، وقد صنعت لنفسها عرشا وحسب عقيدتها. إذن فلا بد أن مثل هذه المرأة زينت عرشها بصور للشمس ولما تعبد من دون الله من نجوم أو قمر... الخ. وقام النبي سليمان عليه السلام بإجراء تغييرات وتبديلات وتزيينات تهيؤها للهداية وتقربها لها. ولا يذكر القرآن الكريم أن النبي سليمان عليه السلام أجرى زيادات أو نقصانا في عرشها وإنما قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾. فماذا نفهم من هذا؟ أنفهم أنه أمرهم بتغيير شكل عرشها أم تزيينه بإضافة بعض الزينات الإسلامية؟... نرى أن الاحتمال الثاني هو الأقوى، وهو إزالة كل ما يشير إلى الوثنية من صور وزينات. ثم الانتظار ومشاهدة عما إن كانت ستفهم الرسالة والإشارة الموجهة لها عندما ترى عرشها وتهتدي أم لا... وفي النتيجة نرى أن بلقيس عندما ترى عرشها تهتدي لكونها تملك فطرة سليمة وذات ذكاء وفطنة وفكر رحب. لأنها ما أن ترى عرشها لا تملك نفسها من العجب، وتفهم

الرسالة والإيماءة الموجودة هنا وتعلن هدايتها وإسلامها لرب العالمين.

لا شك أنها كانت بفطرة مهيأة لتلقي رسائل الوحدانية الموجودة في هذا الكون. ولكن ملكة سبأ هذه على الرغم من فطرتها السليمة وذكائها وبصيرتها لم تكن قد اهتدت من قبل، لأنها نشأت وترعرعت بين قوم وثنيين وتشربت بالعقائد الباطلة لقومها، مما كان حائل بينها وبين الهداية وتقييم رسائل التوحيد المبثوثة في العالم.

لا شك أن إحضار هذا العرش إلى هناك يعد معجزة لسليمان عليه السلام، وكرامة لفرد من أفراد أمته أوتي علماً لدُنّياً. وكانت هذه كافية لها للإيمان وللتصديق بالنبي سليمان عليه السلام. ولكن كان الأصل في الإيمان هو إعمال العقل واستخدامه والتفكر الآفاقي والأنفسي(*) والمشيئة الإلهية الخاصة. لقد كانت هذه هي وسائل الإيمان حتى ذلك اليوم، وما كان لها أن تتبدل في عهد النبي سليمان عليه السلام ولا من بعده.

اللهم صل وسلم وبارك على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى أصحابه والتابعين أجمعين.

(*) أي التفكر في الآفاق وفي الأنفس حسب ما ورد في القرآن الكريم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) (المترجم)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [النمل: ٤٥]

قيام القرآن بإيراد قصة ثمود بعد قصة سليمان عليه السلام مباشرة قد تكون للأسباب الآتية:

١– إن العرب كانوا يعرفون قوم ثمود حق المعرفة.

٢– من المحتمل أنهم كانوا يعرفون مدى قوة قوم ثمود، وهذا جانب آخر له أهميته من حيث التأثير على قوم سليمان عليه السلام.

٣– مثلما كان قوم "اورارتو" خلفاً لقوم إرم، فمن المحتمل أن قوم ثمود كانوا خلفاً لقوم سليمان عليه السلام. لذا رجح القرآن ذكر أحدهما بعد ذكر الآخر.

٤– قد يكون التشابه بين خلقي القومين وتصرفاتهما وطبيعتهما سبباً في ذكرهما معاً.

ومع أن النـــزاع بين من يستجيبون للرسل عند قيامهم بدعوة الأمة وبين المنكرين لهم نـــزاع متكرر في التاريخ ﴿فَإِذَا هُمَا فَرِيقَان يَخْتَصِمُون﴾ (النمل: ٤٥)، غير أنه يوجد هنا خط جامع بين تيار الضلال الكبير الذي ظهر بين الموسوبين بعد سليمان عليه السلام، وبين انحراف قوم ثمود وضلالهم. فمقابل نداء صالح عليه السلام لقومه وقوله لهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ (النمل: ٤٦) كان جواب قومه ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ (النمل: ٤٧).. قالوا له هذا واستمروا في غيهم وفي ضلالهم. وهذا القول أو الزعم سبق وإن قيل للنبي موسى عليه السلام في التاريخ الإسرائيلي ثم تكرر ضد العديد من الأنبياء والرسل منهم عيسى عليه السلام أن قالوا له أيضاً: ﴿قَالُوا إِنّا تَطَيَّرْنَا بِكُم﴾ (يس: ١٨) وعدا هذا فهناك أيضاً وجوه تشابه عديدة ومشتركة بين هذه

الانحرافات المستندة إلى الطغيان والجبروت وإلى انتشار الظلم والتعسف، وطلب الخوارق والمعجزات، بل طلب رؤية الله تعالى عياناً.

والقرآن الكريم يورد ذكر هؤلاء الأقوام، من الذين عصوا رسلهم، قوماً من بعد قوم وبشكل متتالٍ في أكثر الأحيان وهذا الجزء من السورة مثال منه.

obeikandl.com

سورة القصص

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]

جاء في بعض روايات التفسير -استناداً إلى هذه الآية- أن قارون كان من أقرباء النبي موسى عليه السلام، فقال بعضهم إنه كان ابن خاله، وقال بعضهم: كان ابن عمته. وقد تكون مثل هذه التفاسير، والبحث عن قرابة مع هذا النبي هو للتأكيد على أنه مع كونه بهذا القرب من النبي موسى عليه السلام فهو لم يستطع الاستفادة منه. والحقيقة أنه لا توجد أي إشارة لمثل هذه القرابة لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية.

إذن يجب البحث عن تفاسير أخرى:

يحتمل أن قارون كان من بني إسرائيل، لذا قال القرآن الكريم ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾. أو كان من بين الأمة التي وجه إليها موسى دعوته. أي كان ضمن من شملتهم دعوة موسى عليه السلام. وقد يكون -مثله مثل السامري- من الأشخاص الذين اهتم بهم النبي موسى عليه السلام، ورآه ممن يجب بذل عناية خاصة به. ولكن قارون لم يستطع تقييم هذا الاهتمام ولا تقييم الثروة المعطاة له لكي يكسب بهما الجنة.

وتستمر الآية فتقول ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦). ولنقل من البداية بأن تعابير القرآن الكريم منزهة عن الكذب، وكذلك عن المبالغة التي تعد كذبا ضمنيا. إذن عندما نقوم بتصور هذه الحقيقة التي يعبر عنها القرآن، أي تصور كنوزه التي تنوء

العصبة أولي القوة من حمل مفاتحه ندرك ماذا تعني مثل هذه الثروة الطائلة.

إن كنوز قارون هذه كانت بمقادير تكفي لملء متاحف عديدة حاليا.

إن قارون تجاه هذه الثروة الطائلة التي وهبت له تجبر وتكبر وطغى واستعلى على قومه، لذا قال له بعضهم: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦). ولكنه لم يعبأ بهذا التنبيه بل استمر على انحرافه،ثم أجابهم متبجحاً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨).

وليس هذا الوضع خاصا بقارون. فكم من شخص في التاريخ القديم وفي أيامنا الحالية أيضا قد أطغته الثروة والغنى وحرفته عن الطريق القويم، وهم يكررون نفس ما قاله قارون. لذا ليس من الصحيح تضييق إطار خطاب القرآن وحصره بقارون. وقال الذين كانوا يغبطون قارون على ثروته ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: ٧٩).

ولكن عندما خسف الله بقارون وبداره الأرض:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص: ٨٢).

كان مصير قارون الذي لم يُغَيِّرْ سلوكه وينظمه كما يجب تجاه النعم المهداة له هو أن الله خسف به وبداره الأرض. ويرسم القرآن هذا الأمر بالمشهد الآتي:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١)

والحقيقة أن قارون قد أخطأ في ناحيتين:

الأولى: إنه انحرف إلى الغرور بسبب هذه النعم التي أنعمها الله عليه، واستعلى على الناس وعلى الله، وسقط في هوة الكبرياء والغرور وهو من

الصفات الحائلة بين المرء وبين الجنة. وفي مقابل دعوى الكبرياء والغرور عاقبه الله بخسف الأرض من تحته. وبتعبير آخر بينما كان قارون يعتقد بأنه هو صاحب هذه النعم المقدمة إليه، وأنه سيملكها إلى الأبد، خسف الله به الأرضَ. بينما كان من الأنسب له إبداء التواضع "من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله".[1]

الثانية: إنْ كَثُرَ في أي مجتمع قارون وأمثاله وَمَنْ على شاكلته، وسيطرت ذهنيتهم على المجتمع بدأت بوادر تمزق وتفتت في ذلك المجتمع. أي لو أصبحت ذهنية الذين يربحون ويكسبون الأموال الطائلة ولا يرون لأحد أي حق في هذه الأموال، ولا يحركون ساكنا إن مات غيرهم من الجوع، أي لو سادت فلسفة الأشخاص الأنانيين في المجتمع، وأصبحت هي التي تشكل طراز حياة الناس، ظهرت فروق هائلة بين طبقات المجتمع. ويمكن الوقوف عند الرأسمالية والشيوعية كأمثلة على مثل هذه الهوة الواسعة بين الطبقات. ففي أمثال هذه النظم كانت هناك في السابق وحاليا هوة واسعة بين طبقات الشعب، مما أدى ويؤدي إلى مآسٍ إنسانية كبيرة، وإلى مصائب. لذا فإن الله تعالى لكي يمنع من انتشار هذه العلة وهذا المرض وسريانه بين أفراد الشعب عاقب قارون بالخسف به وبداره الأرض لكي يكون عبرة لمن يأتي من بعده.

كما أن الله تعالى أراد أن ينبه الناس إلى أن الذين يهتمون بزينة هذه الحياة الدنيا وزخرفها يقعون في خطأ كبير، فإن مال الدنيا زائل، والله تعالى الذي وهب هذه الأموال وهذه الزينة يستطيع سحبها متى ما شاء. والخلاصة أن قارون كان يملك أمتعة كثيرة من الذهب والفضة، ولا يهم هنا عن أي طريق حصل عليها.وكانت خزائنه هذه موجودة في غرف عديدة ومتداخلة ولكل منها مفاتيح ومزاليج لجعلها محفوظة ومصانة جيدا. وهذه المفاتيح والمزاليج الكثيرة تشير إلى صفة الحرص والبخل عند قارون. ويجوز أنه حصل

(١) المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

على هذه الثروة الكبيرة عن طريق التنقيب عن الخزائن المطمورة سابقا والعائدة للملوك السابقين، أو عن طريق الربا. وهذه الثروة الكبيرة والفجائية التي حولها إلى سلطة ونفوذ كبيرين وإلى استخدام العبيد والحراس جعلته يطغى ويتكبر ويتجبر، لذا قال له بعض قومه: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٩/٢٨).

والسهولة التي حصل بها على هذه الثروة أو بخله وشحه أعمى بصره فلم ير لأي أحد حقا فيها. وكل التصرفات السلبية التي صدرت منه ترجع في الأساس إلى عمى البصيرة هذه، واعتقاده بأن الدنيا ستسعده وتشبعه وتكفيه. وما يطمئن للدنيا ويركن إليها إلا مَنْ كان قد فقد التوازن القلبي... وكان قارون أحد هؤلاء.

obeikandl.com

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]

فهمت هذه الآية الكريمة من قبل الكثيرين على أنها تشير إلى طلب الدنيا على الدوام. ولكن من يعرف شيئا قليلا من اللغة العربية يعرف خطأ هذا الرأي. فمن يدقق في سياق الآية وبدايتها يرى المعنى الآتي:

تقول الآية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي اجعل كل ما أعطاك الله وسيلة للدار الآخرة. وفعل "وابتغ" هنا يعني شيئا أكثر من "واطلب"، لأنه يعني: اطلب واستعمل ما آتاك الله من قلب وحس وشعور وإدراك وصحة ومال وولد... الخ -بل وحتى كل استعداداتك الفعلية والكامنة- واستخدمها في طلب الدار الآخرة. ثم تأتي الآية ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لموازنة المسألة. أجل علينا أن نضع الغد وما بعد الغد أمام أنظارنا على الدوام، وفي الوقت نفسه لا ننسى ما يعود للدنيا من أمور وأشياء. إذن فتناول الشق الثاني من الآية فقط وتوجيه الأنظار إلى الدنيا فقط وجعلها هي وحدها محور النشاط خطأ فاحش. لأن مثل هذا المعنى يتعارض مع الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١). ومن يقل به يجعل القرآن كتابا ينقض بعضه بعضا والعياذ بالله.

ويمكن النظر إلى هذه الآية من زاوية أخرى: اطلبوا الدنيا حسب قيمتها، واطلبوا الآخرة حسب قيمتها. يمكن أن يكون هذا قاعدة من القواعد. إذن فالقرآن يعطي الإنسان بهذه الآية مقياسا، ويطلب منه استعماله.

أجل!... يجب فهم الآية بهذا المعنى. لأن الدنيا حسب القلوب المطمئنة

كيوم عرفات. والأيام الماضية للدنيا بالنسبة للعيد كيوم عرفات. أما العيد الحقيقي فوراء الأفق بل وراء وراء الأفق. لذا يجب المحافظة على هذا التوازن وصيانته، وعيش يوم عرفة حق عيشه. ومن يفقد يوم عرفة في الحج يستطيع إدراكه بعد عام واحد، ولكن من يفقد يوم عرفة الآخرة –عندما نشبه هذا اليوم بالحياة الدنيا– وفاته ذلك اليوم فلن يستطيع إدراكه مرة أخرى.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: "ما لي وما للدنيا. ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح فتركها".[1]

ولو تأملنا لرأينا أن ترك الدنيا ونبذها تماما غير مطلوب كما أن اعتبارها كل شيء غير مطلوب كذلك. وفي حديث آخر: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء".[2]

فما كان لكافر ينكر وجود الله وينكر يوم القيامة أن يتمتع بنعم الله تعالى. فهذا مغاير للعدل الإلهي. ولكن هناك عالم أبدي وراء هذا العالم، ومقابل العقاب الذي سيلاقونه هناك، لا يريد الله تعكير صفو حياتهم في هذه الدنيا ويتجلى برحمته عليهم فلا ينقص من سعادتهم شيئا هنا.

ونظرة الأستاذ سعيد النورسي للموضوع هي: "إن نتيجة الايمان بالله ومحبته سبحانه هي: رؤية جمال مقدس وكمال منزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى.. هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة..[3] ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة

---

(١) الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجة، الزهد ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠١/١.

(٢) الترمذي، الزهد ١٣؛ ابن ماجة، الزهد ٣.

[3] "فإن الله إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ليس ثم ليل ولا نهار قد علم الله عز وجل مقدار تلك الساعات فإذا كان يوم الجمعة في وقت الجمعة التي يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم قال فينادي مناد يا أهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد فيخرجون في كثبان المسك قال حذيفة والله لهو أشد بياضا من دقيقكم فإذا قعدوا وأخذ القوم مجالسهم بعث الله عليهم ريحا تدعى المثيرة فتثير عليهم المسك الأبيض فتدخله في ثيابهم وتخرجه من جيوبهم فالريح أعلم بذلك الطيب من امرأة أحدكم لو دفع إليها طيب أهل الدنيا ويقول الله عز وجل: أين

الدنيـــا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق".[1]

هذه هي الحياة التي نطلبها ونسعى إليها. إذن فما قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة لكي نوازن بينها وبين الآخرة؟. متوسط الحياة الدنيوية هو ستون عاما، يمضي ثلثه في النوم... فما قيمة مثل هذه الحياة؟ لذا فالخروج من هذا الإطار وإعطاء الحياة الدنيوية قيمة أكثر مما تستحق والقول: "هذه هي قيمة الحياة في الدنيا، وهذه هي قيمة الحياة في الآخرة" ليس إلا تعبيراً عن عدم فهمنا للنصوص.

وهناك إلتفاتة من قبل الأستاذ النورسي في هذا الموضوع لم أرها عند أحد غيره. فهو يقول إن للدنيا ثلاثة أوجه: الوجه الأول متوجه للأسماء الإلهية الحسنى، والثاني متوجه نحو أهواء الإنسان وشهواته. والوجه الثالث هو الوجه المتوجه نحو كسب الحياة الآخرة. وهي إلتفاتة عميقة.

إن جانب كون الدنيا مرآة مجلوة لتجلي الأسماء الإلهية يجعل الدنيا شيئا ثمينا جدا، بل يجعلها لا تقدر بثمن، ونحن نحب الدنيا من هذا الجانب، بل نعشقها. ولو لم تكن الدنيا مزرعة للآخرة لما كنا مرشحين للحياة الأخروية، وما كنا من أهلها، ولما كسبناها. والدنيا من هذا الوجه أيضا جنة وبستان. أما وجه الدنيا المطل على أهواء النفس وشهواتها، فهو أقبح من كل قبيح.

عبادي الذين أطاعوني بالغيب وصدقوا رسلي ولم يروني سلوني فهذا يوم المزيد فيجتمعون على كلمة واحدة إنا قد رضينا ويرجع إليهم في قوله لهم يا أهل الجنة لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي فهذا يوم المزيد فسلوني فيجتمعون على كلمة واحدة أرنا وجهك ننظر إليه قال فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب ويتجلى لهم تبارك وتعالى فيغشاهم من نوره لولا أن الله قضى أن لا يموتوا لا حترقوا ثم يقال لهم ارجعوا إلى منازلكم فيرجعون وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى فلا يزال النور يتمكن حتى يرجعوا إلى حالهم أو إلى منازلهم التي كانوا عليها فيقول لهم أزواجهم لقد خرجتم من عندنا بصورة ورجعتم إلينا بغيرها فيقولون تجلى لنا ربنا عز وجل فنظرنا إلى ما خفينا به عليكم قال فهم يتقلبون في مسك الجنة ونعيمها في كل سبعة أيام وهو يوم المزيد" (مسند البزار، ٢٨٩/٧-٢٩٠).

(١) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة الثانية والثلاثون، الإشارة التاسعة.

أي إن الإنسان إن كان متعلقا بأهواء نفسه ورغباتها، ونسي الآخرة لهذا السبب فالدنيا في هذه الحالة مذمومة.

هناك تقييم آخر للأستاذ النورسي حول الدنيا. فهو يقول: يجب ترك هذه الدنيا قلبياً وليس كسبياً. وهذا الذي يقوله النورسي يجعلنا نقترب أكثر لنرى عدم وجود أي خصام لنا مع الدنيا، ولا يمكن أن يكون. أجل إن عمل الإنسان وفق هذا الإطار استطاع أن يربح ويكسب مثل أهل الدنيا وإن كان غنياً مثل قارون... ولكن عندما تقتضي الضرورة عليه أن ينفق كُلَّ ما اكتسبه في سبيل الله، تماماً مثل ما فعل عبد الرحمن بن عوف حيث أنفق سبعمائة بعير مع أحمالها في سبيل الله. و لم يقل له الرسول شيئا و لم يعنفه أو يوبخه لغناه. ولكنه نبهه فقط حول وجوب إعطاء حق هذا الغنى ثم بشره وشوقه. هناك قصة رمزية حول النبي إبراهيم عليه السلام ورد فيها أن الملائكة قالت مستفسرة من رب العزة: يا رب أنت تقول عن إبراهيم عليه السلام إنه خليلك. ونحن نريد أن نعرف أتتلاءم وتتوافق الخلة مع الثروة والغنى؟ فقال لهم ربهم: اذهبوا وامتحنوه. فذهب الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وهم في هيئة من أتى من سفر بعيد مضنٍ، وبملابس رثة وأخبروه أنهم جياع. فقام إبراهيم عليه السلام وذبح لهم شاة، وعندما قربها إليهم ومد الملائكة أيديهم ذكروا -بدلا من بسم الله- دعاءً خاصاً بالملائكة وهو: "سُبّوحٌ قدّوسٌ، رَبّ الملائكة والرُّوح"، ويسحر هذا التسبيح ذلك القلب المؤيد بالوحي إلى درجة يدفعه للتوسل إليهم: "ليكن ربع أغنامي لكم إن قمتم بتكرار هذا التسبيح". فكرر الملائكة، فقال إبراهيم عليه السلام: "ليكن لكم نصف أغنامي إن كررتم التسبيح"... وهكذا حتى يهب في المرة الرابعة جميع أغنامه لهم. إذن فالنبي إبراهيم عليه السلام -إن صدقت هذه الرواية- لم يكن تاركاً الدنيا كسباً، بل قلباً.

والحقيقة لا يمكن رؤية أي بيان صريح لسيد الأنبياء في ذم الغنى والمال والملك بالمعنى المطلق. صحيح هناك بعض الإستثناءات، ولكنها متعلقة

بالأوضاع الخاصة لبعض الأشخاص. فإن سُئل عن عدم غنى الرسول ﷺ فنقول إن رسول الله ﷺ جاء من عائلة فقيرة. ولو كان غنياً بعد أن أصبح نبياً وممثلاً لدعوة عظيمة وسامية لربما كان غناه هذا يلقي ظلا على دعوته. ويثار سؤال: "من أين لك هذا؟". وقد يؤدي هذا إلى اهتزاز ثقة أصحاب النيات الصافية. لذا رجح الرسول ﷺ -من زاوية دعوته بشكل إرادي، أو بجبر ولطف قدري- الفقر على الدوام... هذه هي زاوية النظر التي يجب أن ننظر من خلالها إلى الرسول ﷺ وإلى العلماء والأولياء والأصفياء الذين جاءوا من بعده.

والخلاصة أنه يجب ترك الدنيا قلبياً وليس كسبياً. يجب ألا تدخل الدنيا إلى قلوبنا وآلا تسكرنا، أو تعكر نظرنا، أو تنسينا الآخرة. فإن حققنا هذا ملكناها وحكمناها. وإلا حكمتنا الدنيا وعشنا حياة خالية من الشعور والإحساس، كل دقيقة فيها هباءٌ في هباء.

هناك أشياء كثيرة تقوي وتغذي إرادتنا للفوز في هذا الامتحان، ومن الضروري تماماً تحريكها وتشغيلها،وجعلها فعالة. فمثلاً معرفة الله عامل مهم جداً في تقوية الإرادة والإيمان. وإذا كان لنا أن نوضح هذا بمثل نقول: لنفرض أنك تريد أن تحيا حياة المترفين، وبدأت بترتيب أمورك على هذا الأساس، ثم دخلت في سعي محموم لرفع مستوى حياتك. في هذه الأثناء تسرع معرفة الله لنجدتك. هنا أود ذكر حادثة وقعت لأحدهم. ومن يدري فقد لا تجدون في ما سأذكره شيئاً موضوعياً. ومع ذلك فسأذكرها. صحب أحدهم هذا الشخص إلى بيته وجلسا في الشرفة المطلة على البحر. في تلك اللحظة وقعت في قلبه رغبة شديدة في العيش في مثل هذا المكان الجميل. ويشهد أصدقاؤه بأنه قام فجأة من مكانه، وغادر المكان عازفاً عن الجلوس في هذه الشرفة. لأن ذلك المنظر الجميل الخلاب غذى شعور طول الأمل عنده، وإلى توهم الأبدية والخلود، لذا تهب معرفة الله لنجدته وتذكره بأن

دقيقة واحدة من تأمل الجمال الإلهي يعادل آلاف السنوات من العيش السعيد في الجنة، وتخلصه من تلك الورطة.

لذا ففهم آية ﴿وَلاَ تَنْسَى نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ كما يريده البعض لا ينسجم مع المفهوم الكلي للقرآن الكريم. وأنا أرى أن الإنسان يجب أن يحس بالشوق للبقاء في الدنيا، ولكن بشرط العيش فيها حياة مليئة كحياة الأستاذ النورسي، وأن يكون مرتبطا بفكر ورغبة إيصال أمة محمد ﷺ إلى الكمالات الإنسانية. يجب امتلاك الدنيا باسم الحق وخدمة الأمة ولكن الحياة يجب أن تكون حول محور الآخرة على الدوام. ومثل هذه الحياة الدائرة حول محور الآخرة تُبقي الفرد ضمن الكسب الحلال على الدوام وضمن اللذة المباحة. ومن المعلوم أن الكسب غير المشروع، واللذة غير المشروعة تجلب معها على الدوام آلافاً من الآلام في الوقت نفسه.

ولنختم هذا الموضوع بحديث خاتم المرسلين ﷺ: "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. فوَالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار".[1]

صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقرَّبين وعلى عباد الله الصالحين.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ١١٦/١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

[القصص: ٨٥]

هنا يرد توجيهان، أو تفسيران، أحدهما تذكير رسول الله ﷺ بيوم لقاء الرفيق الأعلى، وهو اليوم الذي كان ينتظره بشوق ولهفة، لذا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ مذكرا إياه بيوم فراقه لبيته ووطنه، وللكعبة التي كان يحبها محبة تجل عن الوصف، ولكنه في ضمن هذا التذكير المشوب بهذا الحزن الرقيق يبشره ببشارة كبرى توافق فطرته السامية، بشارة بلقاء وبرضوان لا يمكن للعقل تصوره أو إدراك ماهيته، فجاءت الإشارة إليه بتنوين التنكير في كلمة "معادٍ"... معاد هو آخر مستقر ومقام له، ليزيل بذلك كل حزن أو غم عنده.

والآخر هو أن الله تعالى من بداية سورة القصص حتى هذه الآية كان يذكر لمحات مهمة من حياة النبي موسى عليه السلام، وكفاحه مع فرعون، وعلاقته مع قومه وطائفته، وبعد التذكير بأن التاريخ يتكرر، وأن هذه هي سنة الله في الكون كان يشير إلى أن الرسول ﷺ سيضطر -مثل موسى عليه السلام- إلى ترك بلده ووطنه وبيته، ليستقر ويقيم في بلد آخر. وأن هذا قانون وسنة لا تتغير. وإذا أتينا إلى علاقة هذه المسألة بهذه الآية نقول إن هذه السورة مكية، أما الآية أعلاه فقد نزلت في أثناء الهجرة حسب إحدى الروايات. أي أن القرآن بهذه الآية كان يخفف عن النبي المحزون من فراق مكة ويهون عليه الأمر من جهة، ويبشره بأنه سيرجع إلى مكة ويعود إليها من جديد بعد تسع سنوات. وهذا التوجه والتفسير هو الأقوى وهو يتضمن إخبارا عن الغيب ودليلا من دلائل النبوة.

وعندما جاء الميعاد المقدر تم فتح مكة ونكس الأعداء رؤوسهم من

الذل، أما رسول الله ﷺ فخر الكائنات فقد تحقق له ذلك "المعاد" الذي سبق وأن بُشر به من قبل. لذا فالأصح أن كلمة المعاد هنا تعني هذا الأمر وهذه البشارة بعودة الرسول ﷺ إلى مكة.

الله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

obeikandl.com

سورة العنكبوت

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

[العنكبوت: ٤٥]

مع أن الصلاة تنهى الشخص الذي يؤديها عن الفحشاء والمنكر، إلا أن وقوع مثل هذا الشخص في بعض الأخطاء شيء مقدر والحديث النبوي الذي يقول "كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون"[1] يشير إلى هذه الحقيقة.

إذا أدّى الإنسان صلاته بمعناها الكامل تتوسع عنده فترات النور، وتقلُّ عنده فترات الظلام والعتمة. وتنمو عنده حالات البسط، وتكاد تنمحي عنده حالات القبض. تضيق في عالمه الداخلي المنافذ المفتوحة للنفس وللشيطان، وتنفتح الأبواب الروحانية والملائكية على مصاريعها. ولكن كل هذا مرتبط بأداء الصلاة عن وعي، أي مرتبط بالصلاة التي تحرك القلب، وتغذي المشاعر، وتهزّ الإحساس إلى حدّ الارتجاف. أي إن الصلاة الواردة في الآية ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هي الصلاة بمعناها الكامل. أما الذين لا يبلغون في صلاتهم هذا الأفق، فلا مناص من وقوعهم في الأخطاء.

إن نهي الصلاة للشخص عن المنكر وتوجيهه نحو المعالي مسألة تركيز جدي. فمثلاً عندما نصوم رمضان في أشهر الصيف ونمتنع عن الطعام

(١) الترمذي، القيامة ٤٩؛ ابن ماجه، الزهد ٣٠؛ الدارمي، الرقاق ١٨.

والشراب ما يقارب ١٦-١٧ ساعة، ثم عندما نفطر ونتناول كوب ماء نحس بـــهذا الماء وهو يتوزع في كل جزء من أجزاء جسدنا. ونظير هذا يجب أن يحس وجداننا بكل كلمة نقولها في أثناء الصلاة وبكل ركن نؤديه من أركانـــها، وأن تـــهز هذه الصلاة قلوبنا وتذكرنا أننا أمام الله تعالى. مثل هذه الصلاة هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. إذن نستطيع هنا أن نقول إننا بدرجة المستوى الذي نبلغه في الصلاة نكون بعيدين عن المنكرات. وبمرور الوقت تكون مثل هذه الصلاة بأبعادها العميقة عاملا مهما في توجيه سلوكنا.

ونستطرد هنا فنقول بأن على الإنسان -شريطة ألا يقع في اليأس- أن يحاسب نفسه على الدوام. عليه أن يكون حذرا وأن يقول لنفسه على الدوام: "ماذا لو ردت علي هذه العبادات، وماذا لو رميت صلاتي بوجهي كخرق بالية". ولكن يقول هذا بالنسبة لنفسه وليس بالنسبة للآخرين، لأن هذا حرام بيّن ويعد سوء ظن. أجل!... لنكرر هنا قولا مأثورا كثيرا ما نكرره وهو: "يجب أن يتصرف الإنسان مثل مدعي عام -أي ممثل اتهام- أمام نفسه، ومحاميا عن الآخرين". أي يرى زلاته الصغيرة ذنوبا كبيرة، ويتصرف بشفقة وبحنان الأم أمام الأخطاء الكبيرة للآخرين. وحتى عندما ينبه المذنب ينبهه بحنان قلبي. والحقيقة إن هذا هو أسلوب القرآن. ولهذا قال الله تعالى ﴿اُتْلُ مَا اُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاةَ﴾ (العنكبوت: ٤٥). أي يدعونا إلى إرشاد القرآن في كل أمر من أمورنا وفي كل سلوك أو تصرف.

لنرجع إلى الصدد: إن الصلاة التي تؤدى تنفيذاً لأمره تعالى وابتغاءً لمرضاته، وبتعبير آخر إنّ الصلاة التي تُؤدَّى بإخلاص والهادفة إلى رضـــا الله تستطيع -بمرور الوقت- إبعاد الإنسان عن الفحشاء والمنكر، إن لم يكن اليوم فغدا. أي تكون الصلاة عبادة تعوق الإنسان عن الوقوع في المنكرات،

وأولها الشرك وما يؤدي إليه، أو يقرب منه، ومن الأسباب المؤدية إلى الضلالة. لأن الصلاة عبارة عن عبادة سداها ولحمتها ذكر الله قولاً وفعلاً وحالاً. ومثل هذا الذكر أمر كبير ومتناسب مع عظمة الله، والقرآن الكريم يذكرنا بـــهذا عندما يقول: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

obeikandl.com

سورة لقمان

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧]

في هذه الآية يسرد القرآن الكريم بالتسلسل أموراً أربعة مهمة: إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، والصبر على المكاره.

الصلاة رأس جميع العبادات، وعمود الدين في الإسلام. والأمر بالمعروف من مؤيدات الدين. وعندما يدخل الشخص في محاولة إصلاح أخطاء المجتمع متجاوزاً استعداداته الشخصية ومسئوليته الفردية فلا بد له من مواجهة العديد من الغوائل والمكاره. وكل من يرى أنه سيضطر على ترك ما تعود عليه منذ سنوات طويلة، وكل فرد أو مؤسسة ترى أن مصالحها ستتعرض للخطر... كل هؤلاء سيقفون في وجهه ويقومون بالضغط عليه. في مثل هذه الظروف على المؤمن أن يصر على المقاومة، وأن يحافظ على خط سيره. وإذا نظرنا إلى التاريخ من هذه الزاوية رأينا أمثلة عديدة على هذا الأمر. وفي مقدمة هذه الأمثلة نرى رسولنا الكريم ﷺ الذي لم يهتز أمام المصاعب التي واجهته وهو يقود نضاله الكبير، حتى عندما كان وحده، واستمر في طريقه بكل ثبات وبكل صبر.

إذن ففي كل مرة يرد أمر تطبيق الإسلام ومعايشته في واقع الحياة بمعناه الحقيقي، ودعوة الآخرين له يرد موضوع الصبر. وهناك آية أخرى تبين هذا الأمر بشكل أوضح وهي ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥).

أي استعينوا بكل أنواع الصلوات وبكل أنواع الصبر والتجئوا إليهما واستمروا في طريقكم. وفي الحقيقة فإن الاستمرار كل يوم على الصلوات الخمس، وعلى أداء أربعين ركعة يوميا، والثبات عليها نوع جيد من أنواع الصبر. فهذه العبادة الكبيرة تكون ثقيلة جدا على غير الخاشعين ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

والآية هنا تؤكد بأن الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان وارداً ومطلوباً في الأمم الأخرى كذلك، وهذه الحقيقة تقدم هنا بصيغة خطاب لأحد المؤمنين. والظاهر أن لقمان عليه السلام عندما قال في البداية ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) كان يريد حفظ ابنه وصيانته عن أكبر المنكرات وأكبر الموبقات، ثم ذكّره بأهم ركن من أركان الإسلام، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو جانب من الجهاد المطلوب من كل فرد في كل زمان والغاية من وضع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجانب أهم عبادة "وهي الصلاة" هو للتنبيه ولجلب الأنظار ولتأسيس التوازن الشرعي المطلوب.

أما إذا أتينا إلى وصية ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧) فهي لبيان مسؤولية شخصية مستقلة من جانب، وتنبيه إلى وجوب اليقظة لما ستجر الوظيفتان السابقتان من متاعب ومن مشاكل.

سورة الأحزاب

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤]

كان سيدنا زيد بن حارث طليق الرسول ﷺ. ومع وجود والده فقد فضل زيد رسول الله ﷺ على والده وبقي معه، فتبناه الرسول ﷺ. وأصبح يدعونه لفترة من الوقت "زيد بن محمد". ومنع القرآن الكريم بهذه الآية إطلاق هذا الاسم عليه، وحذّرَ في الوقت نفسه أن يدعى أحد لغير أبيه وأمه، ودعا إلى أن يُنْسَبَ الابن إلى أبيه إن كان معروفا. ومنع بذلك التبني. وبعد نـــزول هذه الآية بدأوا يطلقون على زيد اسم زيد بن حارثة. كما أطلقوا اسم فلان مولى فلان على الذين اهتدوا على يد المسلمين، مثلاً: سالم مولى حذيفة.

والأمر الآخر الذي تشير إليه الآية الكريمة هو أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون أن الشخص الذكي يحمل في جوفه قلبين وأن زوجـــات الذيـــن يظاهرون نساءهم يكن مثل أمهاتـــهم بـــهذه المظاهرة لذا قامت الآية بضربة واحدة بإزالة هاتين العقيدتين.

والآن لنـــأت إلى عدم حمل الإنسان لقلبين في جوفه. لا شك أن القلب المقصود هنا ليس هذا القلب المادي الذي هو عبارة عن قطعة لحم بالشكل

المعروف للجميع. إنه القلب الذي تناوله أرباب التصوف بالوصف والتقييم. وهذا هو المفهوم من سياق الآية. أجل... إن الإنسان لا يمكن أن يكون له قلبان مفتوحان أحدهما للتوحيد مثلاً والآخر للشرك، أحدهما للإخلاص والآخر للرياء، أحدهما للحقيقة والآخر للكذب. أحدهما للحق والآخر للباطل. الأبيض أبيض، والأسود أسود. أجل... لم يجعل الله أزواجنا اللائي نظاهرهن أمهاتنا، ولا جعل من نتبناه من الأولاد أبناءنا، كما لا يملك الشخص الذكي قلبين. هذا هو قولكم بأفواهكم والله هو الذي يعلم الحق ويهدي للصواب.

إذا نظرنا للموضوع من زاوية أخرى نقول بأن الإنسان قد يبدو في أزمان مختلفة ونتيجة لظروف مختلفة في شخصية مزدوجة. ولكن الإسلام لا يسمح أبدا بهذا الوضع الذي يكون بداية لدائرة مفرغة. لأن هذا يجعل الإنسان أخطر حتى من الكافر. أما عاقبة مثل هذا الشخص -حسب تعبير الآية- فهو في الدرك الأسفل من النار. إن الإنسان إن كان يستطيع الإدعاء بأنه يسير على السبيل القويم الذي رسمه الله تعالى، ويستفيض في ذكر علاقته بالله، مع أنه غارق -من جانب آخر- في الباطل، مثل هذا الشخص يحمل إذن -حسب تعبير الآية- قلبين في جوفه. ولكن الآية ترد هذا وترفضه وتؤكد استحالته. والله تعالى عندما يقول في آية أخرى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩) ألا يقوم برد الازدواجية والأثنينية؟

أجل... عندما يكون الطريق واحداً يكون القلب واحداً. ومن يتبع طرقا مختلفة لن يستطيع الخلاص من الاضطراب والتشوش في عالم الفكر والتصور والقلب. أما ما وراء هذا فهو -كما يذكر القرآن الكريم- مجرد أقوال لا غير. فماذا تقول مثلا في شخص يقول إنه مسلم، ولكن تجده في الوقت نفسه يتصرف كملحد ويقوم بإهانة الدين والكتاب والرسول؟... مثل هذا الشخص ذو وجهين ومثال للنفاق وللشقاق.

والخلاصة ما من شخص يحمل قلبين ولا وجدانين. فالقلب في أعماق عالمه قلب واحد في نقطة استناده، وهو أقوى شاهد أنفسي على وحدانية الله تعالى. وليس كل من تقولون عنهن -من طرف اللسان- أنـــهن أمهاتكم هُنّ فعلا أمهاتكم، ولا الذين لم يولدوا من أصلابكم يمكن أن يكونوا أولادكم. في هذه المسائل الثـــلاث هناك تناقض مع الحقائق، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي إلى السبيل القويم، ويدعوكم لكي تنسجموا مع وجدانكم ومع أنفسكم.

obeikandl.com

سورة سبأ

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]

كان سليمان عليه السلام يسخر الجن لخدمته ببعض الأدعية وببعض أسماء الله الحسنى التي لا نعرفها. وعندما كان يقرأها -في عالم الأسباب هذا- كانوا يدخلون في خدمته. والحقيقة أن الأسماء الحسنى ليست عبارة فقط عن الأسماء المائة التي رواها أبو هريرة رضي الله عنه، فقد ورد في دعاء من أدعية الرسول ﷺ: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنـــزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...".[1]

ويفهم من هذا أن الله تعالى قد يكون علم كل نبي أسماء مختلفة. ومن المحتمل أن سليمان عليه السلام كان يسخر الجن بقراءة هذه الأسماء. وفي المعنى الحقيقي فالله تعالى هو الذي ســـخر الجن والشياطين في خدمة النبي سليمان عليه السلام. ويتبين هذا الأمر بشكل أوضح في سورة (الأنبياء: ٧٩-٨٢).

وقد ورد في بعض الإسرائيليات -وليس في السنة الصحيحة- أن النبي سليمان عليه السلام خشي من سوء استعمال هذه الأسماء من بعده فأخفاها في جانب من جوانب عرشه. وأن بعض اليهود في زمانه سرقوا هذه الأسماء واستعملوها لحسابـــهم. وهناك بعض الآيات في العهد القديم ملائمة لمثل هذا التفسير.

هناك بعض التيارات الحالية تحاول تحميل هذا الأمر معاني أخرى تتجاوز

---

(١) المسند للإمام أحمد، ٣٩١/١، ٤٥٢.

ماهيته كثيرا، فيقولون مثلا: "لا حاجة لله -حاشا لله- المهم إرضاء قوى الشر لكي تستقيم كل الأمور". أو يقولون: "قدرة القوى الشريرة أكبر من قدرة القوى الخيرة، لذا يجب إرضاء قوى الشر". ومن الممكن إرجاع أصل هذا إلى فكر "كابالا"، أي أن المصدر مصدر ماسوني بحت. ومن الممكن إرجاع العديد من أشكال المراسيم والشعائر الماسونية إلى المصدر نفسه. وترد في أفلام الكارتون للصغار عبارات من أمثال: "باسم قوى الظلام، وباسم قوى الظلال...." مما تؤدي إلى تسميم العقول الغضة للصغار وقلبها رأسا على عقب، وتفتح جروحا لا تندمل في أرواح الشباب وفي عالمهم الميتافيزيقي الماورائي، وهي سفسطة غير موجودة في تعابيرنا ومصطلحاتنا الدارجة. والظاهر أن مثل هذه التشوهات ستستمر حتى قيامنا بتعديل العالم الداخلي والعالم الروحي لأفراد شعبنا، وتنظيمه.

والأمر الآخر الذي يجب الالتفات إليه هنا هو أن النبي داود وسليمان عليهما السلام أعطيا أشكالا مختلفة من تسخير الموجودات، وكرما به. فتسخير الجبال والحديد لداود عليه السلام الذي كان قد تعرض لمشاكل ومصاعب كثيرة حتى أصبح تمثالا لحقيقة ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ انّهُ أوّاب﴾ (ص: ٣٠). وتكريم سليمان عليه السلام بالنبوة وبالقوة -التي ورث قسما منها من والده- وبالملك وبأبهة السلطنة، وتسخير الجن والشياطين والعفاريت الذين يعدون كائنات ميتافيزيقية -أي وراء هذا العالم المشهود-، وكذلك تسخير الرياح له، يبدو وكأنه تمثيل للتوازن الموجود في الحقيقة الأحمدية بين العالم المادي والعالم الميتافيزيقي "غير المادي".

وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن النبي داود عليه السلام يعد نواة للجانب الباطني من الحقيقة المحمدية، والنبي سليمان عليه السلام نواة للجانب الظاهري منها. وعندما آن الأوان اجتمع كلاهما -الظاهر والباطن- في شخص صاحب الجمع ﷺ.

الله أعلم بالصواب.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤]

تريد هذه الآية قبل كل شيء بيان حقيقة معينة وهي أن الجن لا تعلم الغيب. فإذا لم تكن الجن تعلم الغيب، إذن فالذين يأخذون عنها الأخبار لا يعلمون ولا يستطيعون معرفة الغيب كذلك. لذا تقرر بأن مَن يصدق بصحة أخبار الغيب التي يقول بها الكهان يخرج عن الدين والعياذ بالله.

والأمر الثاني هو: هل عمل الجن حقيقة تحت إمرة النبي سليمان عليه السلام؟ فقد ادعى البعض من الكتاب المعاصرين بأن هذه الآيات وأمثالها الواردة في القرآن آيات رمزية ومن قبيل المجاز والاستعارة ولا تقصد معناها الظاهري. وأنا أعتقد بأن جميع الحوادث التي بينها القرآن الكريم وقعت وجرت حقيقة.

وإذا جئنا إلى الدرس المستقى منها فهو يشير إلى موضوع ذي أبعاد عميقة. فمثلاً يمكن القول فيما يتعلق بهذه الآية: إن الكون أسس بإرادة إلهية، ويسير ضمن المشيئة الإلهية وهو عبارة عن نظم متداخلة بعضها مع البعض الآخر. ولا مكان للصادفات في أي حركة في الكون ضمن هذه النظم. وإن تآكل العصا التي كان النبي سليمان عليه السلام يستند إليها حقيقة من جانب، وليس مصادفة من جانب آخر. ومن المحتمل أن الآية تريد أن تقول لنا بأن ملك سليمان عليه السلام سيتشتت في يوم من الأيام. وهو ما حدث بعد سنوات من وفاته، فقد ظهرت انشقاقات كبيرة في المجتمع، وتراجع إلى عهد الفوضى الذي كان موجوداً في الأيام الأولى من عهد النبي داود عليه السلام. وفجأة هوت السلطنة الكبيرة كبر الجبال إلى الأرض وأصبحت جذاذاً، ووجد الناس الذين كانوا في ظلها أنفسهم في وضع آخر تماما.

سورة يس

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس: ٢٠]

لنبين أولا بأن تعبير "أصحاب القرية" -أي أهل المدينة- قبل هذه الآية يشير إلى أن المكان الذي قصده المرسلون لتبليغ دين الله لم يكن بادية في الصحراء، بل كان من المدن المتحضرة بمقياس تلك الأيام. كان أهل المدينة قد رفضوا دعوة رسولين، فأرسل الله إليهم ثالثا لتأييدهما وتقويتهما. ولكن أهل هذه القرية الذين أصروا على عنادهم وتمردهم لم يكتفوا فقط بالإعراض عن هؤلاء الرسل، بل حاولوا قتل أحدهم وهو من قريتهم.

وهذه الآية التي نتناولها هنا تتحدث عن رجل رابع لتأييد الرسل الثلاثة السابقين، وتقول عنه إنه جاء إلى هؤلاء القوم من أقصى المدينة.

وقد تناول المفسرون منذ السابق تعبير "أقصى المدينة" بالتحليل والتفسير، وذهبوا فيه مذاهب شتى. وسنقوم بتناول ثلاثة أوجه من هذه التفاسير:

إن "أقصى المدينة" يعني: الطرف الآخر من المدينة، وأن هذا الشخص كان يسكن هناك.

إن "أقصى المدينة" يعني: الطبقة الراقية من المدينة، أي من طبقة أشراف المدينة. وفي دعاء "الصلاة المنجية" يرد تعبير: "أقصى الغايات" بمعنى أرفع الغايات وأسماها. أي أن هذا الشخص كان من علية القوم وكان يسكن في ضاحية المدينة، ومن الطبقة الأرستقراطية التي لا توجد لها علاقة حميمة مع أهالي المدينة.

إن هذا التعبير يشير إلى شخص بعيد من ناحية طراز التفكير والفهم عن أفكار قومه، وإنه كان ذا مستوى أرفع منهم. وكلامه وقوله ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يدل على هذا الفرق في مستوى التفكير.

حسب التفسيرين الثاني والثالث فنحن أمام شخص له تفكير مستقل عن تفكير أهل المدينة، وفلسفة مستقلة، وشخص مخلص يسارع أهل المدينة إلى استشارته كلما حزبـــهم أمر. ويقول المفسر "أَلْمَاللي حَمْدي" في تفسيره بأن هذا الشخص عندما حاول أهل المدينة قتله قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٦-٢٧)

وإذا تناولنا هذا القول بالتحليل قلنا بأن هذا الشخص كان على الدوام يطوي بين جوانحه حب قومه وتمني الخير لهم، ولم يحمل ضدهم حقداً أو ضغناً، أو رغبة في الانتقام منهم. على العكس من هذا كان يحمل عاطفة الرحمة حتى لأعدائه، وكان يتمنى أن يصلوا إلى السعادة التي وصل هو إليها، وبأسلوب نبوي أراد أن يشرح وللمرة الأخيرة وضعه لهم.

والحقيقة إن هذا الطراز من التفكير والسلوك هو طراز وتفكير المخلصين في كل عهد وزمان. فها هو سيد المرسلين ﷺ يدعو الله وقد كسرت رباعيته في معركة أحد وبدأت الدماء تسيل منها ويقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".[1]

ونستطرد هنا فنقول بأنه مهما بدا أن دعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦) يناقض ظاهريا ما قلناه آنفاً، إلا أنه ليس كذلك، لأنه من المحتمل أن نوح عليه السلام قال هذا على اعتبار ما سيكون، وأنه كان يعرف طبيعة ذلك المجتمع الذي قضى فيه كنبي أعواما طويلة، ويحتمل أنه حدس الرغبة الإلهية، أو أنه أوحي إليه هذه الرغبة والمراد

(١) البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٤؛ ابن ماجه، الفتن ٢٣.

الإلهي فقال ذلك الدعاء. لأن هذا هو الخلق العام للأنبياء العظام في الغالب.

ثم يجب الوقوف حول عما إذا كنا نحمل هذه القصص محمل الحقيقة أم لا. لأننا نعتقد أن هذه القصص ليست قصصاً رمزية، بل هي حوادث وقعت حقيقة، ونقلها القرآن لنا.

ثانياً إن الله تعالى بقصه علينا هذه القصص يشير إلى بعض الحقائق الكونية الجارية حتى قيام الساعة. أي هي جارية منذ وجود آدم عليه السلام حتى آخر رجل في هذه الدنيا. لأننا عندما ننظر إلى العناصر التي يستعملها القرآن نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم. وهذا هو المنتظر أصلا من كتاب كوني. ولكن لكي نستطيع النظر إلى القرآن هذه النظرة يجب متابعة آياته ضمن إطار خاص. بل يمكننا القول إن هذا هو الشرط الوحيد للاستفادة الحقيقية من القرآن. والشيء الآخر إن الآيات سواء كانت في حق الكافر أو المنافق أو اليهود أو النصارى، وكانت أسباب النـــزول تشير إلى هذا الأمر أو ذاك، فـــإن كل فـــرد -وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين- يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. وبتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: "صحيح إنني لست بنبي، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف وكأنها قد نـــزلت عليّ". وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى -حاشا لله- في زمن أو مكان معين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول ﷺ فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن تقلل نسبة الاستفادة منه كثيراً.

والآن لنرجع إلى الآية الكريمة مرة أخرى: إن الحادثة المبينة هنا جارية

بنظائرها وبأمثالها حتى يوم القيامة. ونستطيع عد أمثال أبطال هذه الحادثة الموجودين في كل عصر، بدءً من مؤمن آل فرعون إلى سيدنا أبي بكر ﷺ، ومن حبيب النجار إلى شهود كل عصر، ومنهم إلى شهود عصرنا. منهم شاهد عصرنا الذي أتى إلى اسطنبول من أقصى البلاد حاملاً معه حلولاً ومقترحات متعلقة بمستقبل الإسلام. وهو في هذا لا يبتغي أجراً من أحد ولا شهرة ولا غنيمة، بل نراه مثالا للإخلاص والتضحية والصدق إلى درجة أنه يقول: "لو شاهدت سلامة إيمان أمتي، فإنني أرضى أن أحترق في نار جهنم لأنه بينما يحترق جسدي فإن قلبي سيمتلئ سعادة وحبوراً".(١) وكم من أمثلة أخرى هناك في الداخل وفي الخارج... أمثلة أخرى على نفس النمط وعلى نفس المقياس من الالتزام بالمبادئ والمثل والتضحية في سبيلها.

ويذكر القرآن الكريم حادثة أخرى جرت في عهد موسى عليه السلام أيضا. وتحمل تلك الحادثة وهذه الحادثة خطوطاً عامة مشتركة. في تلك الحادثة نرى فرداً من آل فرعون، أي من المنتسبين للقصر الفرعوني ومن الطبقة الأرستقراطية عندما يعرف نيتهم في قتل موسى عليه السلام لا يملك نفسه من الصراخ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨).

ففي ذلك الوسط لم يكن من الممكن لشخص من عامة الشعب الوقوف ضد قتل موسى واغتياله عليه السلام.

وفي تاريخ السيرة النبوية نرى البطولة نفسها عند أبي بكر الصديق ﷺ. ففي أثناء قيام المشركين بتعذيب المسلمين حتى الموت، كان أبو بكر الصديق -وكان من الطبقة الأرستقراطية لمكة- يقول العبارة نفسها: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله".(٢)

إذن فالحوادث التي يبينها القرآن تتكرر على مر الزمن تحت صور مختلفة ولكن بالماهية نفسها.

---

(١) السيرة الذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

(٢) البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ مناقب الأنصار ٢٩؛ تفسير القرآن (٤٠) ١؛ المسند للإمام أحمد، ٢/ ٢٠٤.